Journal of Scientific Research in Arts
ISSN 2356-8321 (Print)
ISSN 2356-833X (Online)
https://jssa.journals.ekb.eg/?lang=en

التاريخ الحضاري لمصر: دراسات بينية

أ.د. علياء رضاه رافع
أستاذ علم الاجتماع بكلية البنات جامعة عين شمس

المستخلص:

هذه الورقة تقدم رؤية لتكامل منهجي في دراسة التاريخ الحضاري لمصر، تجمع بين مقاربات الأنثروبولوجيا والآثار والتاريخ وعلم النفس التحليلي، حيث إنه من خلال المقاربات البينية يمكن أن نبني رؤية تربط الماضي بالحاضر والمستقبل؛ فعندما ندرس الماضي من منظور الحاضر، نستطيع أن ننطلق إلى المستقبل دون أن نفقد هويتنا الحضارية التي امتدت عبر العصور وتأكدت ملامحها من خلال لحظات تاريخية فارقة[i]، كما عبرت عن نفسها في الفنون التشكيلية التي عكس الكثير منها المخزون الثقافي التحتي غير الظاهر والذي أطلق عليه كارل يونج "اللاوعي الجمعي". وعلى الرغم من التحديات التي واجهتها مصر والتي عملت على تغييب هذه الشخصية، ولكنها تحضر دائما في المواقف الصعبة، في العصر القديم والعصر الحديث.

وتعتبر هذه الورقة تمهيدا من أجل إنشاء برنامج دراسي غير مسبوق يستحضر الرؤية التي جعلت مصر بداية لتغير نوعي في تاريخ الإنسانية. وإذا كان علم الآثار يوفر المعلومات الضرورية الأساسية، فإن الأنثروبولوجيا التأويلية تفسر وتشرح وتحلل هذه المعلومات، فهي تبحث في الجوانب الثقافية والبنية العقلية التي خلقت نقلة نوعية في تاريخ الإنسانية، ويرتبط التاريخ بالأنثروبولوجيا، حيث الدراسات التاريخية تقدم الإطار السياسي والاجتماعي لتطور المجتمع، بينما تحلل الأنثروبولوجيا البناء العقلي والتفاعل الثقافي مع المتغيرات السياسية والاجتماعية، وتأثير هذا التفاعل على مقاومة عوامل التغريب، ثم أخيرا وليس آخرا فإن هذه العلاقات البينية في دراسة التاريخ الحضاري، تكتمل بعلم النفس التحليلي الذي يعالج اللاوعي الجمعي التاريخي، والأنماط القديمة التي تجمع المنتج الحضاري وتعطي له شخصيته عبر التاريخ. رؤية هذا التكامل المنهجي ثمرة لبحوث في المجالات المطروحة لسنوات طويلة، تم خلالها تعليم ذاتي لعلم النفس التحليلي وتقديم أوراق ومحاضرات لمركز البحوث والدراسات في علم النفس العميق في سويسرا، والإشراف على برامج ثقافية وتنفيذها في مشروعات ثقافية تبنتها مؤسسة البناء الإنساني والتنمية على مدى أكثر من عشر سنوات.[ii]

كلمات مفتاحية:
الدراسات البينية – الشخصية المصرية – الحضارة – الأنماط القديمة

نبذة تاريخية: ظهور الوعي بالهوية

لا نستطيع أن نعزل مصر عما يجري في العالم من متغيرات، خاصة في ظل الثورة المعلوماتية والعولمة في جوانبها الاقتصادية والثقافية، والتي جعلت المجتمع المصري يشهد بصورة مطردة تغيرا ثقافيا هائلا وسريع الخطوات، لا يقارن بالتغير الحثيث الذي مرت به مصر مع بدايات القرن التاسع عشر الذي امتد إلى القرن العشرين.

وقد دخلت مصر مع بدايات القرن التاسع عشر في ثقافة الحداثة عندما أيقظت الثورة الفرنسية الوعي المصري بمدى التخلف الحضاري الذي ران على البلاد الإسلامية إبان الاحتلال العثماني لمدى ثلاثة قرون من الزمان، وتم عزل مصر عن مواكبة النهضة الأوروبية التي بدأت مع عصر النهضة في القرن السادس عشر، ثم جاءت الثورة الصناعية لتعلن ميلاد عصر جديد في أوروبا، بل وفي العالم أجمع، حيث تغيرت طبيعة المجتمع وثقافته.

تأثرت مصر بما حدث في العالم، ومن خلال البعثات في عصر محمد علي باشا، في محاولة لرفع الانعزال الحضاري، وإدخال مصر في عصر الحداثة الجديد، بمختلف الوسائل، ومنها إنشاء مدرسة الألسن لتتفاعل مصر حضاريا مع العالم أجمع.. لم يتخل علماء القرن التاسع عشر عن الأصالة الحضارية لمصر، ولكن لم يكن الوعي بمعنى مصر واضحا جليا، إلا بعد قيام ثورة ١٩١٩، إذ تجمع المصريون تحت شعار واحد "مصر للمصريين".

كانت ثورة ١٩١٩ ميلادا جديدا لوعي المصريين بهويتهم الحضارية، وامتزج فيها الإسلام والمسيحية تحت شعار "الدين لله والوطن للجميع"، وتعانق الهلال والصليب رمزا لوحدة شعب وتاريخه. في هذه اللحظات يمكننا أن نرى وعيا جمعيًّا تعدى المعتقدات والأيديولوجيات، ووقف الشعب كتلة واحدة، تدافع عن حرية مصر وكرامتها، وحقها في التخلص من الاحتلال. ويعيد التاريخ نفسه مرة أخرى في ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، ويعيد الشعب التعرف على هويته الحضارية، وتنهار الحواجز الأيديولوجية والطبقية والدينية مرة أخرى، ويهتف الجميع "عيش .. حرية .. كرامة إنسانية". "ارفع راسك فوق أنت مصري"، ويبدع الشعب في ميادين التحرير في التعبير عن نفسه في هتافات وأناشيد وشعر وأغاني، وفي تنظيم ميادينه، وكأنه يبني حضارته من جديد في سيمفونية رائعة يسمعها العالم أجمع ويعلق عليها، بل وتلهم غيره من الشعوب، وعلى الرغم أن الشعب المصري شعب متدين بطبيعته، إلا أنه رفض حكم الإخوان المسلمين الذين أرادوا أن يبعدوه عن شخصيته الحضارية، وخرج مرة أخرى يوم ٣٠ يونيو، في تصميم على استرجاع شخصيته، ورفض حكم اتخذ الدين سلما ليصل إلى السلطة.

والسؤال هو: لماذا لا تستمر هذه الروح؟ ما الذي يوقفها؟

لسنا في حاجة إلى ثورات جديدة، ولكن في حاجة إلى المحافظة على "روح مصر"، أي روح هذا الشعب الوثابة. وعندما نغرق في دراسة الجزئيات ونعزل مظاهر الاغتراب عن أسبابها العميقة، نظل في دائرة مفرغة من التحليل والتفسير من دون أن نجد سبيلا للخروج من حال التدهور الحضاري الذي نسير فيه، ولهذا وعلى الرغم من عدم إنكار تأثيرات تيارات عديدة فكرية وسلوكية وثقافية على توجيه رؤية الشباب، وعلى عوامل تفكيك المجتمع، تظل هناك محاولة لرؤية شمولية متكاملة، ثم يتم تحويل هذه الرؤية إلى مشروعات تطبيقية، يتفاعل معها المجتمع المدني، وأيضا يتبناها الجهاز التنفيذي للدولة.

وفي عجالة نستطيع أن نقول إن مجتمعنا مازال تحت تهديد الفتن الطائفية على الرغم من الحل الأمني والضرب بشدة على نشاط الجماعات المتطرفة التي تعمل على تقسيم البلاد. وعلى صعيد آخر فإن الثورة المعلوماتية، وازدياد الاعتماد على أدوات التواصل الاجتماعي، خلقت جزرا ثقافية منعزلة بعضها عن البعض، تسير في اتجاهات متباينة وتخلق مجتمعا غير متجانس ثقافيا. وإذا أضفنا إلى هذا التنوع الشديد في النظم التعليمية، من تعليم دولي، إلى تعليم أزهري، ثم تعليم قومي، نجد أننا أمام كثير من العوامل التي تؤدي إلى قيام مجتمع لا يعرف له طريقا أو هدفا واضحا، وشبابا ضائعا لا يعرف له هوية. ناهيك عن توحش الأسلوب الاستهلاكي الذي يروج له الاعلام في استفزاز للطبقات المتوسطة التي لا تستطيع أن تساير هذا السباق على الرفاهية المبالغ فيها. لا يدعي هذا البحث أن لديه حلا سحريا لكل هذه المتغيرات المركبة التي يمر بها المجتمع المصري، وإنما يهدف إلى تقديم رؤية لاستعادة الهوية الحضارية، دون الرغبة في إعادة انتاج الماضي، لأن هذا أمر مستحيل. ومن ناحية أخرى لسنا في حاجة إلى فرض أيديولوجيات فوقية، لأن التجربة التاريخية أثبتت فشل محاولة التحكم في الاتجاه الفكري الأيديولوجي، سواء كنا نتحدث عن الاتجاه القومي "القومية العربية"، أو الاشتراكي، أو الليبرالي، أو الإسلام السياسي، أو أي أيديولوجية أخرى. إن ما يقدمه هذا البحث هو منهج علمي تكاملي، له جانبه التطبيقي الذي قد يؤثر على السياسات التعليمية والإعلامية والثقافية، وهو تأثير تفاعلي، لا ينبع من فرض النظرية على الواقع، ولكن يتبني رؤية للتاريخ من حيث إن التاريخ تيار لا يتوقف، ويستهدف أن يكتشف الإنسان إنسانيته من خلال تاريخه الحضاري، من خلال دراسة أسباب الازدهار والأفول، ويهتم أن

يستعيد الإنسان المصري رؤية "معنى مصر"، لا أن يفتخر افتخارا فارغا من المضمون بحضارة سبعة آلاف عام، وإنما يرى هذه الحضارة في صميم تكوينه النفسي، ويستبعد العوامل التي تبعده عن هويته الإنسانية الحضارية. إذا استطعنا أن نحقق هذا، نكون قد عرفنا طريقنا الذي يقودنا إلى الابداع العلمي والفني، بل ويساعدنا أن نرى الأرض المشتركة التي تجمع بين كل الأديان والحكمة قديما وحديثا.

الأنثروبولوجيا والتاريخ

التاريخ هو حجر الزاوية في العلاقة بين علم الآثار والأنثروبولوجيا. وعندما أعلن الأثري جراهام كلارك أن هدف علم الآثار هو أن يتفهم تاريخ الإنسانية من خلال المجتمع، فإنه كان يتحدث في الواقع عن التاريخ ويعني به علم الإنسان، كما كان يعرفه الأنثروبولوجيون في ذلك الوقت "أي دراسة الإنسان والثقافة في الزمان والمكان".(G. Clark 1957). أما اليوم (القرن الواحد والعشرون) فإن الكثير من العلماء يجمعون بين التاريخ والآثار.

من الملاحظ أن التحيز الثقافي حكم رؤية الدارسين عندما قاموا بتحليل الماضي، وقد تبنوا رؤية خطية للتقدم تصورت أن المجتمعات لا بد أن تصل إلى الحداثة التي هي قمة التقدم من وجهة نظرهم. ولا شك أن قراءة التاريخ الحضاري لمصر قد تأثر بالتحيز الغربي. ولذا من الأهمية بمكان أن نقرأ تاريخ مصر مجددا. وعندما يتعلق الأمر بدراسة "التكوين الحضاري"، تصبح القضية في حاجة إلى أكثر من زاوية، يلعب فيها الربط بين التاريخ السياسي والثقافي دورا مهما. وهذا الترابط من شأنه أن يكشف عن أبعاد نفسية عميقة لها خصوصيتها بالنسبة لهذا الشعب، ومرتبطة بالعمق الحضاري لهذا البلد.

العلاقة بين الأنثروبولوجيا والتاريخ ليست أمرا مستحدثا، سنجد أن كلفورد جرتس أشعل رغبة المؤرخين في رؤية الثقافة بوصفها شبكة من المعاني المركبة التي يضعها الإنسان في رموز، ولهذا أصبحت دراسة الثقافة مرتبطة بكيفية استخدامها في ديناميكية التفاعل الإنساني وتوليد معاني جديدة في المواقف الإنسانية، وتبني المؤرخون هذه الرؤية، فهم يدرسون التاريخ الثقافي من هذا المنظور .(Darnton 2007)

وكان كتاب تأويل الثقافة (Geertz 1973)، ذا تأثير قوي على الكتابات التاريخية الأنثروبولوجية. لقد طبق جرتس المنهج التاريخي على الدراسات االأنثروبولوجية المقارنة، ونخص بالذكر كتاب الإسلام في المغرب وإندونيسيا Islam Observed (Geertz 1971) وفي هذا الكتاب وضح أنه بينما يبدو أن الإسلام هو الدين الرئيس في البلدين، وأنهما يتبعان دينا واحدا من حيث الأصول، ولكن في الممارسة والفهم تأثر الدين بالأصول الحضارية في البلدين، وأخذت الرموز دلالات متنوعة. ولكن إذا تجاوزنا التأثر الحضاري، ودخلنا إلى عمق اللاوعي، سنجد التشابه في الأنماط المتعلقة باللاوعي وليس في الممارسات الخارجية.

عندما نتحدث عن التاريخ الحضاري لمصر فإننا نتحدث عن نوعية من الوعي خلقت نظاما مجتمعيا لم تعرف له البشرية مثيلاً من قبل، ورؤية للعالم أثرت على ما أنتجته هذه الحضارة من قيم أخلاقية رفيعة، وفنون متميزة، وعمارة مبهرة، وهو ما خلق لهذا البلد شخصية حضارية خاصة به، امتد وجودها عبر العصور على الرغم من تغير التعبير عنها.

وإذا كان جرتس قد أولى اهتماما لارتباط الأنثروبولوجيا مع التاريخ، فإن هذا يجعلنا نرى دراسة التاريخ من حيث هي قراءة للقديم الذي هو في حاجة إلى تفسير جديد. وما يضيفه هذا البحث هو أنه يبين لنا كيف نكتشف سر الحضارة وكيف نشأت، ثم لحظات الانهيار والافاقة والبعث وما هو المستمر في التواجد، وما هو المتغير في تكوين الشخصية المصرية. ثم التفرقة بين التغير في أسلوب الحياة، وبين

التكوين النفسي للشخصية، وهنا تدخل الأنثروبولوجيا لتبحث فيما يقدمه التاريخ من دراسة أحقاب وتسلسلها إلى دراسة ثقافة وتغيرها، ويجيء دور علم النفس التحليلي ليرى التاريخ من منظور التكوين النفسي للشعب وامتداد الشخصية المصرية ودراسة خصائصها.

يكمل علم النفس التحليلي ما يقدمه التاريخ والأنثروبولوجيا، وذلك عندما يخترق الزمان، ويرى الإنسان الذي عاش في الماضي والموجود في الحاضر في وحدة واحدة، لا تلغي التغير والتطور التقني والمعرفي، وإنما ترفع الغطاء لترى الإنسان بوصفه إنسان، كما كان يبحث عن معنى الحياة في الماضي، فهو في حاجة إلى إدراك معنى الحياة في الحاضر أيضا، وستظل الإجابة على معنى الحياة تجربة معيشة وليست فكرة يتلقاها من خلال الدين الرسمي الجمعي أو أي أيديولوجية، فكل إنسان ينسج رؤيته من خلال تجربته الخاصة، وفي الوقت ذاته فإن تلك التجربة على ما فيها من خصوصية، لها ملامح عامة تتجاوز الخاص إلى ما يجمع الإنسان على مستوى عميق أعطاه كارل جوستاف يونج تعبير اللاوعي الجمعي (Carl Gustav Jung 1959)

كما يوضح لنا التاريخ ظهورالشخصيات الكاريزمية التي أثرت في التحولات الكبرى، وتشرح لنا الأنثروبولوجيا التغيرات الثقافية التي حدثت في المجتمع، وينظر علم النفس التحليلي إلى العلاقة بين التكوين النفسي للشعب في فترة زمنية ما وكيف أنه يخلق قيادته الكارزمية، متجاوبة مع تكوين النفسي، خاصة ما يدور في اللاوعي. ويعود الأمر مرة أخرى إلى الأنثروبولوجيا التي تكشف عن طبيعة العصر ثقافيا.

ارتباط الأنثروبولوجيا بالتاريخ يجعل لكليهما قيمة مضافة، وهو ما أكدته رئيس رابطة الأنثروبولوجيا الأمريكية بقولها إن الأنثروبولوجيا هي العلم االذي يعتني بالإنسانية، وهو العلم المؤهل أن يطرح تساؤلات كبرى أساسية: "من أين جئنا؟ وإلى أين سنذهب؟ وليس على المجال الميتافيزيقي وحده، وإنما من منظور واقعي، يستدعي قضايا تهم العالم أجمع (Weiner 1995) . وبالفعل فإن التساؤل "من أين جئنا"، هو سؤال تجيب عليه الدراسات التاريخية وعلم الآثار، وتقرأه وتفسره الرؤية الأنثروبولوجيا، ثم يقوم بتحليله علم النفس التحليلي، ومن هذا التلاحم يمكن أن نتحرك إلى المستقبل: "إلى أين سنذهب". وهذا هو صميم الهدف الذي تتحدث عنه هذه الورقة، إذ إننا في حاجة إلى نقلة نوعية في الوعي، كما حدث عند بدء كل حضارة مثلت تحولا نوعيا في الرؤية والحياة. لا نعيد الماضي ولا نجتره، ولكن ندع حكمته فينا تخلق وعيا جديدا.

يجب إذن أن يكون واضحا أننا نتحدث عن بلدنا مصر، ولكن عندما نتعرض لتاريخ مصر الحضاري، فنحن نتحدث في نفس الوقت عن نشأة "التاريخ الإنساني". لهذا تشغل مصر مساحة في كل المناهج الدراسة على مستوى العالم كله. واستعادة أبناء مصر لمعنى الحضارة وقيمتها، وقيمها يساهم في النقلة النوعية في الوعي التي نتطلع إليها في بلدنا، بل وفي العالم أجمع.

الأنثروبولوجيا وعلم الآثار

خرج جرتس من دراساته الثقافية المتنوعة إلى رؤية مركبة للثقافة، إذ إنه بالإضافة إلى لتعريف العام الذي قدمه، من حيث إن الثقافة هي شبكة من المعاني ينسجها الإنسان حوله ويعيش فيها، إلا أن الثقافة بناء مركب من مستويات عديدة، كل مستوى متكامل في ذاته، ومتواصل مع ما هو أدني منه وما هو أعلي منه، إذا رفعنا الغطاء عن المستوى الأول الذي يحتوي على الأشكال المختلفة للثقافة، نجد أننا أمام الوظائف والتنظيم الاجتماعي، وعندما نرفع الغطاء عن هذا المستوى نجد المستوى السيكولوجي

والاحتياجات الأساسية التي تدعم ما فوقها من مستويات، وعندما نرفع الغطاء عن المستوى السيكولوجي، نجد أننا أمام الأسس البيولوجية والفسيولوجية والعصبية، وكل ما يتعلق بالحياة الإنسانية.

ومن وجهة نظر جرتس فإن الإنسان له طبيعة خاصة به وسط المخلوقات الأخرى، وهو الكائن الذي يصنع هذه الشبكات الرمزية كي يعيش بداخلها، ومع ذلك لا يمكن أن نضع تعريفا للفطرة الإنسانية، كما فعل فلاسفة عصر التنوير. كما لا يمكن أن نختزل الثقافة إلى سلوكيات نصفها بمعزل عن الإمكانيات الإنسانية. ويؤكد أن التنوع أمر لا يمكن انكاره، سواء كنا نتحدث عن الثقافة أو عن الأفراد المشتركين في ثقافة واحدة، إذ إن اشتراك الأفراد في ثقافة واحدة، لا يعني تطابق تام بين أفراد هذه المجتمع، كما أن احتياج الإنسان لخلق ثقافة، لا يعني أن كل الثقافات الإنسانية متطابقة. كل إنسان له خصائص فريدة لا يتشابه فيها مع إنسان آخر، وكذلك كل الثقافة لها خصائصها الفريدة أيضا، فكل ثقافة هي تعبير اختاره الإنسان كي يعبر عن نفسه بطريقة تميزه.

ومن المتفق عليه إجماعا أن الثقافة احتياج إنساني رئيس، لا يمكن أن يعيش الإنسان من دون أن تكون لديه ثقافة. ولهذا فإن ما نقول عنه فطرة إنسانية، هو احتياج طبيعي لخلق معنى وتحميل هذا المعنى على رموز. ويضرب جرتس أمثلة على هذا، ويقول أن الإنسان ليس الإنسان إنسانا لأنه يتنفس، ولكن لأن التنفس رمز بالنسبة إليه عندما يمارسه بطريقة معينة في تدريبات اليوجا، ويسمع له شهيقا وزفيرا، أو عندما يردد كلمة مقدسة فهي تعني له الكثير، عندما يردد في ذكره "الله .. الله" فهي أكثر من كلمة ينطقها، في كل حركة وفي كل قول وفي كل فعل، هناك معنى يسبغه الإنسان على ما يقوم به.

تبعا لتعريف جرتس عن دراسة الثقافة من الناحية الأنثروبولوجية، فإنه وضح أن هذه الدراسة تحمل رفع طبقات يركب بعضها فوق بعض، وعلينا أن نرفع غطاء كل مستوى لنرى ما تحته، ولذا فإن البحث عن جذور الثقافة في أعماق التاريخ، هو دراسة في علم الآثار بامتياز، ويصبح التداخل بين الأنثروبولوجيا والآثار ليس اختيارا، وإنما هو تكامل منهجي ضروري، كي نفهم ونستوعب معنى الحضارة ونشأتها.

تقوم دراسة الآثار على السلوك الإنساني في الماضي من خلال تحليل الثقافة المادية، والآثار التي تركها الأقدمون، وهناك تقنيات خاصة بعلم الآثار من حيث الكشف وتفسير دلالات الأثار التي يتم اكتشافها تباعا، من خلال التنقيب، والمسح لمختلف المنتجات الحضارية، وعلم الآثار محتاج لعلوم أخرى لاستكمال النتائج التي يخلص إليها، مثل الجغرافيا والجيولوجيا، وأيضا الأنثروبولوجيا. يستخدم علم الآثار النظريات الأنثروبولوجية ليشرح ويعرف النظم الاجتماعية في الثقافات القديمة، وإذا كانت الأنثروبولوجيا تعتمد على المعايشة في مجتمع دراسي إنساني، ولكن هذا لا يكتمل دون أن يبحث الدارس عن جذور الثقافة تاريخيا ومعرفيا، ولهذا يصبح علم الآثار ذا أهمية بالغة، من أجل دراسة الحاضر في علاقته بالماضي.

.وإذا كان علم الآثار يقدم الكيفية التي عاش به الأقدمون، فإن الأنثروبولوجيا التأويلية وأنثروبولوجيا الوعي تعالج الآثار المادية بوصفها رموز تبدو بمثابة أحجية، تطلب تفسيرا وتحليلا وتأويلا. بل قد تكشف الممارسات الشعبية الفلكلورية التي تهتم بها الأنثروبولوجيا عن بعض من المعاني التي تحملها هذه الآثار. على سبيل المثال تم تصوير الاحتفال بمولد سيدي أبي الحجاج في الأقصر، وهو احتفال له خصوصيته، وعندما تمت المقارنة بين هذا المولد وبين الاحتفالات التي كانت تقوم أيام القدماء تمجيدا لأوزيريس، كان التطابق مذهلا، وكأن الثقافة الشعبية في جانب من جوانبها ميراث يحمله الإنسان من الماضي.

هذا يقودنا إلى أن هناك ما هو وراء هذه الممارسات من معاني، قد نكون في حاجة إلى تذوقها من منظور معاصر، وليس من خلال الوقوف عندها بوصفها شكل من أشكال الثقافة. وهذا ما يدخلنا في مفهوم الأنماط القديمة The archetypes التي تحدث عنها يونج. دراسة الحضارة من منظور الأنماط، يساعدنا أن نرى التشابه في التكوين النفسي، وليس في الممارسات الخارجية وحدها.

علم الإنسان أو الأنثروبولوجي يتعلق بالحياة الإنسانية من الناحية الثقافية والبيولوجية والاجتماعية، وما ينتجه الإنسان من فنون في الماضي والحاضر، وهو بهذا التعريف الواسع يصبح علما متشابكا ومتداخلا مع علم الآثار. وكلا العلمين يسعى إلى الوصول إلى رؤية تعكس بناء منظما، يربط الماضي بالحاضر، ولهذا فكلا العلمين يرتبطا بالقضايا التي تخص الواقع المعاصر، خاصة ما يتعلق بجذوره التاريخية، مثل الهوية والتعبير عنها، وتحقيقها، والربط بين الدراسات الأكاديمية والتطبيقات السياسية المتعلقة بها. نحن نخص في هذه الورقة علم المصريات بصفة خاصة. وإعادة رؤية كيف نشأت الحضارة المصرية وتطورت، وما هي البنية العقلية والنفسية التي سادت في هذه الحضارة، ذلك لأن هذا من شأنه أن يعيد قدرتنا على أن نرى هويتنا، ويؤكد وحدتنا التاريخية التي عمل الاستعمار، والتيارات المغرضة على التشكيك فيها. ولكن من المهم أن نبين أيضا أن علم الآثار هو أحد المقاربات في علم الأنثروبولوجيا بالمعنى الكلاسيكي، وأن العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم الأثار ليست أمرا جديدا. وعلى سبيل المثال، فإنه من المتفق عليه أن الإنسان لديه قدرات تميز بها بين المخلوقات، وهي ما يمكن أن نطلق عليه "فطرة"، ليس بالتعريف الوصفي الثابت، ولكن باشتراكه في سمات نفسية مشتركة، فهو الكائن الذي يخلق معاني ورموز بلا توقف، ويتفاعل مع بيئته الطبيعية تفاعلا خاصا، ومتميزا، ولذا فإن إحدى اسهامات الأنثروبولوجيا تأكيدها أن الفطرة الإنسانية والحياة الاجتماعية يجب دراستهما في علاقتهما بعضهما ببعض، وينبغي ألا نضع حضارة ما أنها نموذج مثالي يحدد معنى إنسانيتنا، فهذا القول إذا كان يدل على شيء، فهو يدل على تحيز ثقافيethnocentrism ، وهذا التحيز يمكن أن نقع فيه بسهولة إذا لم نعترف بالتنوع الثقافي من خلال الدراسات المقارنة، وهذا هو المنهج الرئيس في الدراسات الأنثروبولوجية، وهذا المنهج لا يكتمل إلا بالدراسة التاريخية التي تستقصى التاريخ القديم وارتباطه بما يحدث في الواقع. وهنا يتعانق علم الآثار مع الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية، ولهذا يصبح علم الآثار مكملا رئيسا في الدراسات الأنثروبولوجية ومتداخلا معها. (Earle 2003).

وعالم اليوم يتميز بالتداخلات والتشابكات بين الثقافات نتيجة للثورة المعلوماتية، والعولمة في جانبها الاقتصادي والثقافي، ومع ذلك يجب ألا يتخلى الأنثروبولوجي عن رسالته الأساسية، أي الالتفات للخصوصيات الثقافية والتنوع والتشابه من خلال الدراسات المقارنة، ليكشف عن البعد غير المنظور في التغيرات الثقافية، وبدون هذا التشابك، تفقد الأنثروبولوجيا تميزها الخاص.

ونلاحظ أن علم الآثار في السبعينيات والثمانينيات استخدم النظريات الأنثروبولوجية ويقول هودر: "الدراسات الأيكولوجية الاثنوجرافية تشمل دراسة الحاضر والماضي في علاقتهما بعضهما البعض، باستخدام الأدوات الأيكولوجية والاثنوجرافية في إطار الالتزام الأخلاقي. ويستخدم هودر تعبير "الماضي في الحاضر" ويعني بهذا أننا ونحن نبحث عن معنى ما حدث في الماضي، فإنني نعيد بناءه من جديد تبعا للعالم الذي نعيش فيه (Hodder 2012)

وأكد الأثريون احتياجهم لتحديث نظريات علم الآثار، ومن الملاحظ أن علم الآثار في الولايات المتحدة الأمريكية كان جزءا من الأنثروبولوجيا منذ عصر لويس هنري مورجان في القرن التاسع عشر (Morgan 2019) ، حيث كان لعلم الأنثروبولوجيا هدفان رئيسيان: أولا توثيق ثقافات الشعوب غير الغربية، والدراسات المقارنة لهذه الثقافات. وفي الولايات المتحدة في بدايات القرن العشرين كان الاتجاه

الأساسي هو فهم ثقافات الهنود، وتوثيقها قبل اختفائها من خلال عملية التطبع التي مارسها الرجل الأبيض، واعتقد الأوربيون النازحون إلى أمريكا، أنهم يوثقون لشعوب ليس لها تاريخ، لأن هذه الشعوب لم يوثقوا تاريخهم. (Wolf 1982) . وفي الوقت نفسه، كانت هناك محاولات للأثريين للتنقيب، للحصول على أي مادة يمكن أن يبني عليها تاريخ الهنود غير المكتوب، وتم تجميع العديد من عناصر الثقافة المادية لهذه الشعوب وعرضها في متاحف في نيويورك وشيكاغو، واهتم فرانز بواز بجمع الثقافة المادية والمنتج الفني للهنود في الساحل الشمالي للقروبين الموجودين في هذه المنطقة، ومقارنتها بما تم اكتشافه من خلال التنقيب. وكون فرانز بواز مدرسة في الأنثروبولوجيا، ودرب الكثيرين الذين انتشروا في انحاء البلاد ومنهم أسماء تركت بصمتها مثل الفرد كروبر (١٨٧٦- ١٩٦١)، روبرت لوا (١٨٨٣ – ١٩٥٩) وإدوارد سابير (١٨٨٤ -١٩٣٩) وغيرهم، وأنشأت مؤسسة الرابطة الأنثروبولوجيا في أمريكا في القرن التاسع عشر متاحف في أنحاء متفرقة من الولايات المتحدة، لتجمع الثقافة المادية لقبائل السكان الأصليين. اهتم بواز بالجانب التاريخي للثقافة، واكتشاف القيم ورؤى العالم لتلك القبائل التي اهتم بدراستها، وشغل الأنثروبولوجيون في ذلك الوقت بالتنظير، خاصة فيما يتعلق بتعريف الثقافة، وكانت المعلومات التي قدمها الأثريون دعما لتحول الأنثروبولوجيا من علم يهتم بالكتابة الإثنوجرافية، إلى علم له منهجية في البحث عن أهم ما يتعلق بالإنسان، قديما وحديثا.

لفتت رئيس الرابطة الأمريكية نظر الحاضرين إلى أهمية ادراسات البينية، لاستمرارية الأنثروبولوجيا، حيث وضحت أن هذا العلم، له دور كبير حري أن يقوم به، من منطلق قدرته علي المقارنة بين الشعوب من كل أنحاء العالم، ليس فقط من خلال التغيرات الحديثة، بل من خلال عمق في الزمن يوفره علماء الآثار الأنثروبولوجيون. وبهذه الطريقة فإن الالتزام بالمنظور العالمي المقارن يمكنه أن يوفر مرجعية جديده تتناسب مع ما بعد الحداثة إذ إن تأكيد وتقدير التنوع في مواضيع البحث سيجعل الأنثروبولوجيا علما متكاملا مع مواضيع الدراسة لعلوم أخرى. وبهذه الطريقة، لن يصبح الأنثروبولوجي علما جانبيا كما كان من قبل.(Weiner 1995)

ومن هذا المنطلق فإن دراسة الحضارة المصرية أو التاريخ الحضاري لمصر، يقع في بؤرة هذه الرؤية، حيث أن مصر جذر تاريخي للحضارة في العالم. وتختلف الحضارة المصرية عن حضارات الشعوب الأصلية التي سكنت العالم الجديد، ذلك أن تأريخ هذه الحضارة بدأ مبكرا، وليس حقيقيا أن هذه الحضارة بدأت منذ سبعة آلاف عاما، وإنما كانت هناك حضارة لم يتم التوثيق لها قبل تاريخ الأسرات بآلاف السنين، ومازلنا نجهل الكثير عما قبل الأسرات. وإنما هذا التاريخ هو بداية التوثيق الذي قام به القدماء المصريون لحضارتهم. ولهذا فقد قاموا بدراسة لأنفسهم بأنفسهم، وسجلوا حياتهم اليومية، ومعتقداتهم، وبنوا المعابد والمقابر التي تحدت الزمن، وعاشت لتصل إلينا ونراها وندرسها كانوا في الواقع يمارسون ما يقوم به الأنثروبولوجيون، فهذا السجل الحافل للحياة اليومية، على المعابد، وتلك الوثائق التي وجدت للعمال الذين بنوا الأهرامات، عبرت عن حياة كاملة تسجل كل شيء عن ممارستهم ومعتقداتهم، والمناخ العام الموجود في ذلك العصر. وقدمت مصر علوما في الفلك والرياضيات والإدارة، ونقلت عنها اليونان، فأثرت في الحضارة الهيلنية، ومن دون مصر ما كان يمكن أن يكون هناك تاريخ حضارة بالمعنى الذي نتحدث عنه الآن.

لقد اكتشف الغرب الحضارة المصرية، ولهذا فسرها الدارسون لها تبعا لخلفيتهم الثقافية، واعتقدوا أن المصريين وثنيون، ويعبدون آلهة متعددة، وأن حضارتهم لا تقوم على أسس علمية رصينة، وأن الفلسفة والعلم بدأ من اليونان، ولكن مع إعادة النظر واستخدام منهجية التأويل الأنثروبولوجي، باستعادة الأجواء التي عاش فيها المصريون القدماء، ثم أعادة القراءة مرة أخرى، تبين أن المصريين قد

أدركوا الأصل الواحد المقدس للكون وذلك من خلال التأمل العميق، وارتبط الإيمان بالبعث والحساب (Budge 1967) ، وليس هذا فقط، بل إنهم قد برعوا في الطب والفلك والرياضيات.

الأسطورة المصرية تحتوي على حديث عن الآلهة، ولكن الآلهة بالنسبة إليهم ليسوا كائنات إنسانية متضخمة، ولكنهم قوى من قوى الطبيعة. وهم يستخدمون أساطيرهم التي توضح رؤيتهم البصيرية للطبيعة، ولا يمكن فهم أساطيرهم بدون الرجوع إلى المرجعية الدينية بالنسبة إليهم. الآلهة المصرية هي أقرب إلى الأنماط الفطرية القديمة archetypesالموجودة في اللاوعي، (R. T. R. Clark 1978)

ويضيف كلارك أن هناك قاسما مشتركا بين البشر، حتى لو اختلفت الثقافات في التعبير عنه، وعندما تكون هناك بعض الأفكار غير مفهومة، فإن هذا يرجع إلى أننا لم نستطع أن نفهم ما هو غير مألوف، ولكن إذا درسنا الأمر جيدا، نجد أنه يعبر عن ذلك القاسم المشترك. وإذا كنا هنا نتحدث عن الثقافات والحضارات القديمة، فإننا عندما نتحدث عن الإنسان يتلاشى الزمن، وتصبح هناك وحدة بين الإنسان القديم والإنسان الآن، وهذا لا يعني أننا نتجاهل التغيرات التقنية والعلمية التي حدثت على المدى الطويل.

الأنثروبولوجيا وعلم النفس التحليلي

لقد أثرت الحضارة المصرية في الحضارة اليونانية التي اعتبرها الغرب بدءا للحضارة الحديثة، ولكن في الواقع فإن حلقة الوصل في الحضارة الإسلامية هي التي ربطت بين القديم والحديث، وأخرجت أوروبا من عصور الظلام في عصر النهضة. إن هذه الحلقات التي انتهت بالثورة العلمية ثم الثورة المعلوماتية، جعلت الإنسان منعزلا، واضعا أسوارا بين وبين أخيه الإنسان وبين أي ثقافة أو دين أو عرق يختلف عن ثقافته أو دينه أو عرقه، وأقام نفسه سيدا على الكون متحكما فيه، واستيقظ أخيرا عندما وجد أن تغير المناخ يهدد وجوده. وفي كل الأحوال لو لم تكن هناك بداية لنشأة الحضارة، لسار التاريخ مسارا مختلفا، ولما كان حالنا اليوم على ما هو عليه الآن. أي أنه على الرغم من الجذر الرئيس للتاريخ الذي ظهر في مصر، وصلنا إلى حضارة أحرزت إنجازات في أمور كثيرة، ولكن تراجعت في رؤيتها الإنسانية، عندما وضعت الرجل الأوربي ثم الحضارة الغربية بوجه عام في درجة أعلى من العالم أجمع، ووصفت كل ما قبلها بالبدائية. ولذا فإن استعادة قيمة الإنسان بوصفه إنسان تتطلب منا أن نعيد رؤيتنا للحاضر وما وصلنا إليه من خلال التأمل في الماضي وما كان عليه، لا لنكون سلفيين نوقف الزمن ونعيش في حياة الأقدمين، ولكن لنرى الرؤية التي تبناها المصري وكيف أسرت على قيمه وشخصيته.

كيف نشأت هذه الحضارة، هناك تفسيرات التكيف، وهي مقبولة ومهمة، ولكنها لا تكفي لتفسير الوعي الذي صاحب هذه الحضارة، والإنجازات الأخرى التي حققتها، ولذا فهناك تفسير آخر وهو أن الإنسان في حاجة إلى يعطي معنى لما يراه، ولهذا كان تأمل المصري في الكون هو ما جعله يقيم رؤية لبدء الخلق، وتكون لديه أيضا قصة الخلق، ولهذا هو لا يكتفي بالتكيف كي يعيش وإنما يريد أن يعطي معنى لما يرى فهو يفسر الظواهر الطبيعية ويربطا في إطار كلي. ولما كان الرباط الذي يشعر به مع الكون غير قابل للمنطق العقلي، فإنه عبر عن هذه العلاقة من خلال الرموز التي خلقها، ليعبر به عن حالة باطنية لم يجد له سبيلا لإخراجها إلا من خلال المجاز، سواء في النحت أو في العمائر التي تركها لنا لتنقل إلينا رسالته، أو فيما كتبه في البرديات. وإذا أخذنا هذه الرموز واختزلناها إلى أنها تصور بدائي لإنسان لم يكن على معرفة بالحقائق العلمية، وذلك كما فعل الغرب، نكون بذلك قد فقدنا جزءا مهما من فهم معنى الحضارة المصرية. ومن هنا يظهر علم النفس التحليلي الذي يفك شفرات هذه الرموز من خلال ما أطلق عليه كارل يونج أنماط قديمة.

يهتم دارسو علم النفس التحليلي بالأساطير المصرية، إذ أنهم يرون أنها تعبير جمعي ينتجه اللاوعي الجمعي(Schweizer 2018) أي أن ملاحظة ما يحدث في الكون من ظواهر طبيعية تثير عند الإنسان ما يحدث داخله على مستوى اللاوعي. ولهذا كانت الأسطورة في الثقافة المصرية قديما وحديثا تعبيرا عن علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته بما فوق الطبيعة من دون تدخل العقل.

وبناء على هذه الرؤية فسر علم النفس التحليلي النقلة النوعية التي حدثت منذ أكثر من سبعة آلاف سنة إنها كانت وليدة لتلك العلاقة المتبادلة بين اللاوعي والوعي، إذ يبين هذا العلم أن العقل لا يعمل فقط من خلال ما تعلمه من المحيط الخارجي، ولكنه مرتبط ببعد آخر مختزن، وهو يظهر له في أفكار تبدو غريبة، أو خيال خلاق. تساءل المصري القديم عن الكون، وعن نفسه، ولكن المعرفة التي جاءت له، أخذت تتبلور في حلقات إلى أن أنتجت نوعية من الوعي بالوجود، هي ما أطلقنا عليه حضارة.

لهذا جاء علم النفس التحليلي ليكمل الاتجاه التأويلي الذي تقدمه الأنثروبولوجيا. إذ إن المصري القديم لم يكتف أن يتكيف مع بيئته الطبيعية وينشئ القرى ويقيم السدود ويزرع ما يأكله – وكانت هذه إنجازات عظيمة بلا شك – وإنما حاول في الوقت ذاته أن يعرف أسرار الكون، فكانت رؤيته للسماء وهي تحيط بالأرض من كل جانب وتلتقي معها في الأفق مثار تأمل وتفكر بالنسبة إليه، كما كان اختلاف الفصول واختلاف الليل والنهار في كل فصل مثيرا لرغبته في اكتشاف السبب وراء ذلك. لقد قادته الأسئلة التي كان يتساءلها عن الكون وعن الحياة وسرها إلى طريقين في المعرفة، أحدهما يشير إلى رؤية كونية متكاملة عن حياته ومكانه في الوجود، وعلاقته بهذا الكل الذي هو أكبر من كل شيء، وأما الطريق الآخر فهو قد أدى به إلى معرفة تجريبية حياتية جعلته ينشئ تقويم ويصل إلى عدد أيام السنة، ويبرع في العلاج الطبي للأمراض، بل يقوم بعمليات جراحية، وغيره من التقدم العظيم.

إذن عندما ندرس الحضارة المصرية من خلال الشخصية المصرية، نحن ندرس معاني عبَّر عنها المصري من خلال رموز، وتجسدت هذه الرموز في رسومات، وعمارة، ونحت، ووصف، وكلمات، ونظام اجتماعي أيضا. ولذا كان المنتج الحضاري الذي عبر عنه فيما نطلق عليه آثار، جزءا من رؤية أشمل للعالم، جعلته يلاحظ ويدرس ويستنتج، وينتج علوما مازال بعض من أسرارها مجهولا حتى اليوم.

إذا وضعنا أنفسنا مكان المصري القديم، نستطيع أن نعيش جزءا من تجربته، ونفهم بعضا مما تركه لنا من رؤيته، ونظل مع ذلك جاهلين بكل أبعاد هذه الرؤية، نحن نستعيد تفسيره، ونفسر هذا التفسير وهو ما اطلق عليه جرتس تأويل (Geertz 1973) . والتأويل وإن كان مبنيا على الملاحظة وهي الأداة الأولى في المنهج العلمي، إلا أن التفسير جاء من خلال مشاعر داخلية استلهمها من اللاوعي، وأهمها ارتباطه بالأرض والسماء، وخبرته الداخلية بالمقدس، وإيمانه أن الحياة مستمرة وأن هناك ثواب وعقاب، وقد رسم كل ما دار في داخله على المعابد والآثار، ووثق لحضارته في البرديات.

كان اكتشاف الضمير هو الاكتشاف الأعظم في الحياة الإنسانية، أي المراقبة الفردية للسلوك من دون خوف من عقاب دنيوي، وإنما حضور للمبدأ الأخلاقي الأسمى. وإذا كان المنتج الحضاري العظيم المرئي في الأهرامات والمعابد والرسم ونحت التماثيل له قيمة عظيمة للإنسانية، إلا أن ما هو أعظم بحق هو المبادئ الأخلاقية التي كانت وراء هذه الحضارة العظيمة الملهمة، ونجد تلك المبادئ الأخلاقية جاءت بها الرسالات السماوية، وتكاد تكون الوصايا العشر تأكيدا لما جاء في بردية آني في نصوص الأهرام عن الاعترافات الاثنتين والأربعين التي كان يلقيها المتوفي في المحكمة في الحياة الأخرى. (Budge 1967)

ويعتقد البعض أن الوصايا العشر في العهد القديم قد أخذت من النصوص المصرية، ولكن إذا استخدمنا علم النفس التحليلي، لسنا في حاجة إلى تفسير هذا التشابه بتأكيد النقل عن طريق الاتصال المباشر، بل هي مبادئ محفورة داخل العمق الإنساني. [iii] وينبغي أن نلفت النظر في هذا السياق أن هذه المبادئ الأخلاقية لم تنبع من الوعظ الخارجي، وإنما هي موجودة في اللاوعي الفردي والجمعي على السواء، وليست مرتبطة بجبروت إله يريد أن يفرض سلطانه على البشر، وإنما على وعي بالعدل الكوني والقانون. وعندما تصبح هذه القيم الأخلاقية ممارسة حياتية، يتولد عنها نوعية من الوعي كيف يتعامل الإنسان مع نفسه، ومع من حوله ومع الطبيعة باحترام وتقدير. كانت هذه هي السمات الأساسية التي أخذت الإنسانية في قفزة معرفية ووعي كوني كان بحق بداية للتاريخ والتأريخ.

بالنسبة لمصر، لم يتوقف الأمر عند الحضارة المصرية القديمة، وإنما امتد الوعي بالمبادئ الأخلاقية في المسيحية والإسلام بعد ذلك. وينبغي أن نوضح أننا عندما نتحدث عن المسيحية، فنحن لا نتحدث عن المعتقدات فقط، وإنما نتحدث عن تعامل مع الإنسان والطبيعة، والقيم المحفورة في داخل المصري الذي رفض الاحتلال الروماني لنفوره من التأويل الروماني للمسيحية، الذي جعل المسيح بديلا لآلهة الرومان (Mijares et al. 2007)، وكذلك عندما نتحدث عن الإسلام، فإننا نبتعد عن المذاهب ونتأمل ما جاء به الإسلام من رسالة سلام ومحبة، ولمدة قرون لما يحاول المسلمون أن يجبروا أقباط مصر على الدخول إلى الإسلام. [iv]

ومن الظواهر التي تثير الدهشة هي التطابق بين احتفالات المصري القديم بتعظيم أوزوريس وبين احتفال أهل الأقصر بمولد سيدي أبو الحجاج. كيف نفسر هذا التطابق؟ هل هو مجرد امتداد تاريخي لعادات وطقوس؟ هذا هو التفسير البسيط المباشر، ولكن إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى نجد أن هناك بناءً نفسيًّا خاصة ممتدا في اللاوعي الجمعي، ولكن تتغير رموزه. هنا يدخل تاريخ هذا الطقس الذي انتمى إلى الماضي في تفسير دلالته في الحاضر، وهنا نتجاوز الشكل إلى المعنى الذي يسكن في اللاوعي، تسقط الحواجز بين تعبيرات مصرية قديمة، وتعبيرات إسلامية تعبر عن نفس المعنى، وهذا ما أطلق عليه كارل يونج أنماط فطرية قديمة archetypes[v]

يمكن القول إن بناء الحضارة يقوم على قيم أساسية لا يفصلها الزمن، وهو ما نبحث عنه، ويقع في صميم هذه القيم رؤية الحياة، وكيف يمكن للإنسان أن يحقق إنسانيته، وهذه ليست رفاهية أو فلسفة، أو يوتوبيا. لأن استمرار ثقافة الانعزال والصراع والاستبعاد والأنانية والجشع هي التي ستقود إلى نهاية الدول، بل ونهاية العالم، ونتحدث هنا على مستوى الميكرو وأيضا الماكرو، أي على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمعات. الإنسان بجهازه الفيزيقي جزء من هذا الكل، فهو متفاعل مع بيئته الطبيعية والإنسانية، يؤثر ويتأثر بها، ويختلف الأمر على مستوى الوعي، وعندما يعزل نفسه ويتمحور حول ذاته تصبح ذاته مركز الوجود بالنسبة إليه egocentric وعندما يظن أنه يثبت وجوده، فإنه يفقده، لأنه يقع في صراع مع ذوات أخرى، يسودها التنافس والتناحر، والرغبة في الغلبة والهيمنة، وعلى مستوى علاقات الدول فإن المصالح الاقتصادية تهيمن على الرؤية الشاملة لخير الإنسانية، وقد سادت التسابق بين قطبين رئيسيين في القرن الماضي، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي، تغيرت المنظومة، وأصبح هنا نظام عالمي جديد، جعل الشركات العملاقة عابرة القارات لا توجد تواجدا مركزيا في دولة ما، ولكنها تؤثر في أسلوب الحياة اليومية في كل بلدة على حدة. وإذا أضفنا إلى ذلك تأثير الثورة المعلوماتية وانتشار وسائل التواصل الاجتماعي، لأدركنا أن هناك حركة في العالم كله، تقضي على أسلوب الحياة المحلي وتذيب العالم في أسلوب حياتي متشابه، وفي الوقت ذاته تفصل الإنسان عن واقعه، وعن نفسه، وتجعله يعيش في عالم فضائي منقسم على ذاته. ولهذا أصبح السلوك الفردي مؤثرا على الحالة العامة، وتخضع مصر لهذا

الواقع الذي يهدد استمرارية شخصيتها الحضارية. ودراسة التغير في السلوك والقيم يقع في صميم الدراسات الأنثروبولوجية. ولا تكفي الأسباب الواضحة لتفسير شامل لما يحدث في العالم وما يحدث في مصر، وإنما إذا بحثنا عن الجذور لوجدنا أن السبب الرئيسي هو أن الإنسان وضع لنفسه صورة خارجية مادية واستدمجها internalize it، وتجاهل البعد الداخلي المرتبط بالتراث الروحي والكوني. وهذا ما يشرحه علم النفس التحليلي باقتدار، من دون استخدام لعبارات دينية، ولكن رؤيته تقع في صميم الحكمة القديمة ورسالات الرسل.

خلاصة

عندما نتحدث عن حضارة مثل الحضارة المصرية، من منظور التداخلي البيني، فنحن هنا نعيد رؤية الماضي من منظور الحاضر، بحثا عن المشترك إنسانيا، إذ إن الماضي والحاضر والمستقبل خط متواصل وليس متقطع، وهذا ما لا بد من تأكيده كنقطة انطلاق. والإنسان في هذا البلد مرتبط بكل إنسان يعيش على الأرض، حيث فرض علينا هذا العصر أن نرى الأرض بوصفها وحدة واحدة وليست "قرى" منفصلة أو "قبائل" متناثرة في شكل قوى عظمي أو خرائط جغرافية لبلدان وقوميات متفرقة. نحن جميعا نتأثر على سبيل المثال بتغير المناخ، وما يقع من حروب في بلاد بعيدة مثل ما حدث في تدخل أمريكا في انهيار نظام صدام حسين، وتدخلها في شئون داخلية لكثير من الدول، ثم تلك الحرب بين أوكرانيا وروسيا. ولذا فعلى الرغم من أن تيار ما بعد الحداثة يؤكد التشرذم والانقسام، فإن تلك الأزمات الشاملة التي تؤثر في العالم أجمع تجعل هناك قاسما مشتركا من المخاطر البيئية والإنسانية يحتم أن يتعاون الجميع من أجل مواجهته. ما يحدث من تغير مناخ، وهجرات جماعية، لن تفرق بين الشمال والجنوب أو بين الشرق والغرب. تصدى العالم لجائحة كورونا، وأخذ العالم وقتا طويلا لتكون هناك جهود دولية مشتركة لمواجهة تغير المناخ، ومازالت بعض الدول تتهرب من التزاماتها المتفق عليها من أجل مصلحتها.[vi]

المنقذ لهذا الكوكب من مصير محتوم أن يتضامن العالم لمواجهة التحديات العديدة التي تواجهه وعلينا أن ندرك ان المصالح الاقتصادية المتبادلة لن تخلق السلام وأن التعاون المنصوص عليه في العلاقات الدولية من دون أن يصاحبه تطبيق حقيقي من أجل حل المشاكل المتراكمة والمتشابكة والتي لا يمكن استبعاد نتائجها على كل بقعة في العالم. لن يفلت العالم المتقدم من زحف المهاجرين من بلاد أصابها الجفاف، أو أنهكتها الحروب. ولن يفلت من الأعاصير وارتفاع المياه والفيضانات، ولهذا لابد الخروج من الفكر التقليدي الذي ساد القرن العشرين إلى فكر يتناسب مع عصر نظريات الكم وفلسفته، ورؤية التشابك من خلال نظريات النسق المفتوح في النظم الحيوية، والذي يؤكد أن كل شيء مرتبط بكل شيء آخر، وأن خلق الحواجز يؤدي إلى تلاشي الكيان المغلق (A. D. Nelson 2016) .

ولا ينطبق هذا على العالم الطبيعي فقط، أو على الواقع السياسي فقط، ولكن أيضا على العلوم، حيث أننا في عصر لا يتعارض فيه التخصص الدقيق مع رؤية التشابكات مع مجالات أخرى من العلم متصلة ومتواصلة مع هذا التخصص. ولهذا فإن العلاقة البينية بين الأنثروبولوجيا والعلوم الأخرى المرتبطة بها، تقودنا إلى فهم أعمق لمعنى الحضارة من أجل الحاضر والمستقبل. (G. C. Nelson et al. 2009)

وبناء على ما تقدم، يمكن القول أن الجانب التطبيقي لرؤية هذه العلاقات البينية بين العلوم تساعد على رسم استراتيجيات تعليمية وإعلامية وفنية مؤثرة للوقوف ضد هذا التيار الكاسح الذي عزل الإنسان عن إنسانيته، وحبسه في دائرة مصالحه الخاصة. ولا بد من خلق نواة تجذب حولها قوى التغيير، دون القفز على الواقع، بل باستخدام تقنياته المتقدمة، وعندما تكون هناك نواة جاذبة فإن تأثيرها يتجاوز

التخطيط الاستراتيجي لانتشار ثقافة جديدة، لأنها ستكون مؤثرة على اللاوعي الجمعي، وتأكيدا لهذا فإننا شهدنا ثورة ٢٥ يناير التي لم يكن متوقعا لها هذه القوة، فلم تكن لها قيادة مركزية، ومع ذلك خرج المصريون في أنحاء مصر من أقصاها إلى أدناها في صوت واحد وحركة واحدة، بدأت بنداء على أدوات التواصل الاجتماعي، وانتشرت بشكل لم يتوقعه القائمون على الأمر حينئذ. ليس من الضروري أن يحدث التغيير عن طريق ثورة، ولكن الثورة هي تغيير جذري في الرؤية يبدأ من نواة يتحقق فيها إخراج طاقات الإنسان الكامنة.

إن دراسة التاريخ من منظور أنثروبولوجي من خلال علم النفس التحليلي، يأخذنا إلى رؤية جديدة لمعنى الحضارة، خاصة الحضارة المصرية التي خلقت رموزا تعبر عن ذلك الزخم الداخلي، حيث حقق الإنسان اسهاماته الحضارية في المنتج الثقافي المادي فيما نطلق عليه آثار، وكذلك في العلم الذي وقف وراء هذه الحضارة، عندما حقق معنى إنسانيته، وربط وجوده بالوجود الكلي، وتحققت ذاته الفردية من خلال التلاحم الجماعي، وليس التمركز حول الذات وهو ما أطلق عليه يونج "التحقق individuation.

إن تشخيص كارل جوستاف يونج - عالم النفس السويسري، لما يمر به العالم من سوء يتجه مباشرة إلى الجذور التي خلقت الانقسام والحروب والتشرذم، ويرجعها إلى ثقافة الحداثة التي عزلت الإنسان عن أخيه الإنسان، وزعمت أن التاريخ يسير في صورة خطية إلى التقدم، وقتلت ما في النفس الإنسانية من انتماء إلى الإنسان القديم وإلى الكون. وقد اهتم يونج بالحضارات القديمة والتراث الشعبي والأساطير من منظور علم النفس. فهو ينظر إلى هذه الأساطير أنها رموز لما يحدث في داخل النفس الإنسانية، ومن خلال دراسته الشاملة للرموز والأحلام طرح فكرة الأنماط القديمة archetypes التي تنظر إلى ما يحدث في داخل اللاوعي الفردي والجمعي من صراع أو تكامل. ومن هنا أصبحت الدراسات الأنثروبولوجية تقدم مادة مهمة للتحليل النفسي للشعوب، ويقابلها في العصر الحاضر الآداب والفنون، ذلك أن الابداع الفني يعبر عما يحدث في اللاوعي. وعندما نتأمل الأغاني التي لا تحمل أي معنى، ومع ذلك تلقى شعبية خطيرة بين الشباب، ندرك أن هناك خواء داخلي يخرج في هذه الموسيقى الصاخبة.

نخلص إلى أن الدراسات الأنثروبولوجية مهمة بالنسبة للتحليل النفسي للشعوب وأساطيرها وكيف تكون الوعي في هذه الحضارات، وما هو طريقنا لنتعرف على أنفسنا من خلال هذا الإنسان القديم. إن ما قدمه يونج للعالم مازال يثير الكثير من الاهتمام بين المفكرين وأساطين العلم، هل نحن فعلا مقبلون عن كارثة كونية تنهار فيها القيم التي خلقتها الحضارة الغربية، والتي تجسدت وبرزت بصورة واضحة في تغير المناخ؟ [vii]

إن تشخيص وعلاج الحالة الراهنة، لا يتم عن طريق وجهات نظر هنا وهناك، أو حالة من النصح والإرشاد، وتوجيه فوقي من خلال الإعلام وأدوات التواصل الاجتماعي، وإنما يتطلب الأمر علما عن الإنسان، تلعب فيه الأنثروبولوجيا بوصفها "علم الإنسان" دورا رئيسيا، وتتداخل وتتكامل مع علم النفس التحليلي، إذ تقدم الأنثروبولوجيا لهذا العلم المنتج الثقافي الذي يعبر عما يقبع في داخل النفس على مستوى اللاوعي الفردي واللاوعي الجمعي، وقد نشأت انثروبولوجيا الوعي لتربط بين علم النفس والأنثروبولوجيا anthropology of consciousness وعندما تتكامل أنثروبولوجيا الوعي مع الآثار والتاريخ في دراسة الحضارة والشخصية الحضارية، يصبح تغيير الوعي من خلال اللاوعي الجمعي أمرا تنتظره البشرية، ويبدأ من مصر، فهي الجذر الحضاري الذي بدأ به الإنسان في التعرف على نفسه وعلى ارتباطه بالوجود الأعظم وانتمائه إليه. إن القيم الحضارية تعيش بين المصريين على مستوى عميق، ويحجبها التيارات الكاسحة للمادية والثقافة الاستهلاكية المستوردة، وضعف الانتماء إلى مصر

لأسباب متنوعة، والتغيرات التي جذبت الإنسان إلى الخارج في صراع لا يتوقف. ومع كل هذا فإن المصريين مازالوا يعبرون عن شخصيتهم من خلال الفلكلور، والنزعة الإنسانية التلقائية في مساعدة الضعيف والعطف على الفقير، وإيمان فطري تلقائي، حجبت عنه ما هو موجود في أعماق وجوده، فهو يسير مع التيار الجامح.

ويتحدث يونج عن مشاكل العصر الذي عاش فيه والتي لا تختلف في جوهرها عن مشاكلنا اليوم. بدلا من النازية والبلشفية في القرن المنصرم، نحن أمام إرهاب الجماعات المتطرفة وإرهاب الدول، والصراعات العرقية والفتن الطائفية هنا وهناك، والعنصرية داخل وخارج البلاد التي تزعم التقدم والديمقراطية. ونقلا عن يونج :

إننا اليوم في حاجة إلى علم النفس لأسباب تتعلق بوجودنا، إذ إننا نقف حائرين غير قادرين على فهم ظواهر مثل النازية والبلشفية، لأننا لا نعلم شيئا عن الإنسان، أو على الأقل إن ما لدينا هو صورة مشوهة عنه. أما إذا كنا نعلم عن أنفسنا، لتغير الأمر. إننا نقف وجها لوجه مع مسألة الشر ولا ندري ما الذي يوجد أمامنا، وكيف نخرج من الحفرة المعدة لنا. وحتى إذا أدركنا تلك المخاطر، نحن مازلنا غير قادرين على أن نفهم "كيف حدث هذا هنا الآن". (C G Jung 1989:331)

لا تزعم هذه الورقة أن هناك حلا سحريا وأنه بإمكاننا أن نحل كل هذه المشاكل المعقدة، ولكن القاء الضوء على جذور المشكلة، والعمل على استخدام هذا التداخل بين العلوم في رؤية تكاملية، من شأنه أن يكون خطوة أولى، ينتج عنها خطوات أخرى متتالية تفصح عن نفسها عند تقديم دراسة تخترق الزمن، وترى الماضي من منظور الحاضر من أجل المستقبل.

وليكن واضحا أن هذه الورقة لا تنظر إلى الماضي لتسبغ عليه مثالية مطلقة، فالماضي من حيث هو تاريخ وأحداث فإنه يبين الصراع الدائم بين الإنسان، ولكن التاريخ من حيث هو تعبير عن قصة سعي الإنسان ليعرف نفسه ويعطي معنى لحياته هي قصة بدأت مذ خلق الإنسان، والتعرف على الإنسان في الماضي من خلال الحاضر الذي نعيشه، يجعلنا قادرين أن نرى مستقبلنا بصورة أوضح ونسير إليه في أمل أن يكون هناك ما هو أفضل، وذلك عندما نقدر أن أصل الحضارة هو الإنسان الذي حقق إنسانيته، وعبر عن وجوده في منظومة أكبر منه، فتحرر من أن تكون ذاته محور الوجود، وحقق وجوده من خلال الالتحام بالبشر والطبيعة وما وراء كل شيء وفوق كل شيء. هكذا نشأت الحضارة المصرية وامتدت في الشخصية المصرية على المستوى الباطني، ولكن عوامل التغريب والتشرذم والأنانية سمات طاغية، ولذا فنحن في حاجة إلى إيقاظ هذه الروح التي بنت الحضارة اليوم من خلال الفهم لمعنى الحضارة ونشأتها بتكامل منهجي لتكوين نواة إنسانية مؤثرة، لعل مصر تأخذ مكانتها في أن تعيد مكانتها لتكون بداية جديدة لعصر جديد.

المراجع

Budge, Ernest Alfred Wallis. 1967. *The Book of the Dead: The Papyrus of Ani in the British Museum*. Courier Corporation.

Clark, Grahame. 1957. *Archaeology and Society: Reconstructing the Past*. Harvard University Press.

Clark, Robert Thomas Rundle. 1978. *Myth and Symbol in Ancient Egypt*. Thames and Hudson London.

Darnton, Robert. 2007. "Anthropology, History, and Clifford Geertz." *Historically Speaking* 8 (4): 33–34.

Earle, Timothy. 2003. "Anthropology Must Have Archaeology." *Archeological Papers of the American Anthropological Association* 13 (1): 17–26.

Geertz, Clifford. 1971. *Islam Observed: Religious Development in Morocco and Indonesia*. Vol. 37. University of Chicago press.

———. 1973. *The Interpretation of Cultures*. Vol. 5019. Basic books.

Hodder, Ian. 2012. *The Present Past: An Introduction to Anthropology for Archeologists*. Pen and Sword.

Jung, C G. 1989. *Memories, Dreams and Reflections*. Edited by translated from the German by Richard and Clara Winston Jaffe, Aniela. Fifth edit. New York: Vatage House.

Jung, Carl Gustav. 1959. "Collected Works. Vol. IX, Pt. I. The Archetypes and the Collective Unconscious."

Kingsley, Peter. 2018. *Catafalque: Carl Jung and the End of Humanity*. Vol. 2. Catafalque Press London.

Mijares, Sharon G, Aliaa Rafea, Rachel Falik, and Jenny Eda Schipper. 2007. *The Root of All Evil: An Exposition of Prejudice, Fundamentalism and Gender Imbalance*. Imprint Academic.

Morgan, Lewis Henry. 2019. *Ancient Society: Or, Researches in the Lines of Human Progress from Savagery, through Barbarism to Civilization*. Good Press.

Nelson, Adrian David. 2016. *Origins of Consciousness: How the Search to Understand the Nature of Consciousness Is Leading to a New View of Reality*. Lulu. com.

Nelson, Gerald C, Mark W Rosegrant, Jawoo Koo, Richard Robertson, Timothy Sulser, Tingju Zhu, Claudia Ringler, Siwa Msangi, Amanda Palazzo, and Miroslav Batka. 2009. *Climate Change: Impact on Agriculture and Costs of Adaptation*. Vol. 21. Intl Food Policy Res Inst.

Schweizer, Andreas. 2018. *The Sungod's Journey through the Netherworld:*

Reading the Ancient Egyptian Amduat. Cornell University Press.
Weiner, Annette B. 1995. "Culture and Our Discontents." *American Anthropologist*, 14–21.
Wolf, Eric R. 1982. *Europe and the People without History*. Univ of California Press.

نبذة عن المؤلف

أ.د. علياء رضاه رافع هي أستاذ علم الإجتماع بكلية البنات جامعة عين شمس، أنشأت مؤسسة البناء الإنساني والتنمية عام ٢٠١١، وتشارك في نشاط الجمعية المصرية للبحوث الروحية والثقافية.
في عام ٢٠٠٢عملت أ.د. علياء رافع أستاذا زائرا في كلية البنات بجامعة ران دولف - ماكون، في مدينة لينشبرج بولاية فيرجينيا في الولايات المتحدة الأمريكية .وفي عام ٢٠٠٥ اشتركت خبيرا لجامعة الدول العربية، تبعا لوحدة السكان والهجرة، وسافرت في نشاط هذه الوحدة إلى المغرب وتونس ولبنان.
و أ.د. علياء رافع عضو في جمعيات أكاديمية متعددة، قدمت أبحاثها في مؤتمرات دولية، وانضمت عضوا في مبادرة المرأة للسلام الدولية the Global Peace Initiative of Women حيث شاركت في بعثاتهم في اليابان وكينيا والمغرب. ودعيت لتكون عضوا مدى الحياة في رابطة سيدات العالم All Ladies Leagueكما حصلت على جائزة من هذه الرابطة عام ٢٠١٦ لمساهمتها في رسالة الوحدة الإنسانية، واشتركت في أكثر من مؤتمر في نشاط المنتدى الاقتصادي للمرأة التابعة لهذه الرابطة. لها مؤلفات عديدة باللغتين العربية والانجليزية، ونشرت مؤلفاتها وأبحاثها في الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، والهند، واليابان، والمغرب وكندا.

---

[i] الشخصية القومية تعزز الانتماء الى الجنس أو اللغة بينما الشخصية الحضارية تعكس الصفات التي تجعل أي إنسان في أي مكان وعلى أي أرض يشعر بالانتماء لقيم إنسانية تخرجه من إطار التعصب لقومه، إلى رحابة الرؤية الشاملة لمعنى وجوده الإنساني.

[ii] للمزيد عن خبرة الكاتبة يمكن الرجوع إلى صحفتها على ويكيبديا لتوثيق أبحاثها المتعلقة بالموضوع، وهي عديدة، وتجمع ما بين كتب ومحاضرات في مراكز دولية، وأبحاث نشرت في دوريات، وفصول في كتب، وغيرها. https://en.wikipedia.org/wiki/Aliaa_Rafea

[iii] لا أستخدم هنا كلمة فطرة لما يتعلق بهذه الكلمة من معاني قد لا تشير إلى ما تريد هذه المقالة أن تتعرض له.

[iv] احترم الرسول معتقدات أهل المديمة ولم يحارب اليهود أو النصارى، أو يدعوهم إلى الدخول في شريعة الإسلام ، كذلك لم يدعو المسلمون الذين فتحوا مصر أقباط مصر لدخول شريعة الإسلام، متخذين الرسول قدوة، ولكن هذا لا ينفي أنه في عهد العباسيين، تم ممارسة عنف ضد الأقباط، وانحرف التابعون عن رسالة الرسول الأساسية القائمة على المحبة والسلام، حتى لو اختلفت العقيدة.

[v] اختلف المترجمون في ترجمة archetypes وإذا كان المقطع الأول arche يشير إلى القديم المتناهي في القدم نجد أن المقطع الملتصق به type يشير إلى نسق أو نمط ، ولذا تصبح الترجمة الحرفية النمط القديم. وعندما أضاف يونج هذا المصطلح إلى مفردات علم النفس التحليلي، فإن أخرج هذا النمط من محتوى ثقافي متغير، أو محتوى تاريخي متنوع، وربطه بالإنسان بوصفه إنسان، ولذا وجدت أن إضافة فطري تأكيد مكمل لهذا المعنى في اللغة العربية.

[vi] منذ عام ١٩٧٢، بدأ الاهتمام بالمناخ في أول مؤتمر عقد في استكهولم ، ثم بعد ذلك بعشرين عاما جاء مؤتمر ريودي جانيرو في البرازيل، وظهر فكرة الاقتصاد العولمي، وأهمية المواجهة الجماعية لأزمة التدهور البيئي، ونشأت الهيئة المسئولة عن تغير المناخ في الأمم المتحدة عام ١٩٩٤. ثم أعقب ذلك مؤتمر قمة عام ٢٠٠٢، مركزا على الموارد الطبيعية وأهمية إدارتها إدارة حسنة، وزادت المطالبة بالتعاون الدولي من أجل التنمية المستدامة والحفاظ على الثروات الطبيعية. ثم جاءت بعد ذلك مرحلة ثالثة حيث انعقد المؤتمر الثالث للمجموعة الدولية COP3 الذي انعقد في كيوتو في اليابان، ونتج عنه ما أطلق عليه بروتوكول كيوتو، الذي وضع المسئولية على الدول المتقدمة من أجل الحفاظ على البيئة. والأشهر على الاطلاق هو مؤتمر الجماعة المنعقد في باريس عام ٢٠١٥، وتعاقبت المؤتمرات سنويا إلى المؤتمر الذي انعقد في شرم الشيخ في مصر عام ٢٠٢٢ COP 27، وتبنت بعد ذلك الأمم المتحدة برنامج المناخ UNEP ثم إنشاء اتفاقية بين الدول متعلقة بتغير المناخ IPPC لتجمع الجهود العالمية للعمل المشترك

[vii] أنظر على سبيل المثال Peter Kingsley: Catafalque: Carl Jung and the End of History 2018, حيث يؤكد الكاتب أن الحضارة الغربية قد قاربت على الانتهاء والأفول، وستواجه هذا المصير المحتوم إن آجلا أو عاجلا. (Kingsley 2018)